

أهمية الحجاز في مطلع العصور الحديثة

للدكتور محمد كمال دسوقي

الامويون :

من أرض الحجاز الطيبة الطاهرة خرجت الجيوش العربية ، الفتية الباسلة تحمل راية الإسلام ، عالية خفاقة ، وتذكر في طريقها حصون الشرك ، ومعقل الطغاة الجبابرة ، من أباطرة الروم ، وأكاسرة فارس . وحملت قبائل نجد والحجاز ، واليمن ، للعنبر بأسرها رسالة الهداية والنور ، وقاتلت في سبيل الله قتالا لم يسجل التاريخ له مثيلا .

وبقيت البلاد بمقدساتها تملأ قلوب المسلمين ، في مشارق الأرض ومغاربها ، رغم انتقال المركز السياسى منها ، إلى الشام في العصر الأموى ، وإلى العراق في العصر العباسى . لقد أصبحت البلاد مجرد ولاية من ولايات الخلافة ، يتولى إدارتها ولاية يبعث بهم الخليفة ، فيبعث واليا إلى مكة وآخر إلى المدينة ، وثالثا إلى الطائف وفي بعض الأحيان كان الولى يجمع في ولايته بين مكة والمدينة . وكان والى الطائف يشرف - بحكم موقع ولايته الجغرافى - على السراة وعسير .

زار بعض الخلفاء الحجاز ، واهتموا به اهتماما كبيرا ، وتكاسل البعض في زيارته ، وأهمل الآخرون شأنه ، وظل الكثيرون منهم لا يعلمون عن موطن أجدادهم شيئا ، إلا ما يرد إليهم من أخبار ، أو ما يتعلمونه في طفولتهم على أيدي مؤدبيهم .

ومن الخلفاء الأمويين الذين أدوا فريضة الحج ، واهتموا بالحجاز ، الوليد بن

عبد الملك ، وعمر بن عبد العزيز . ففى خلافة الوليد بن عبد الملك عين ابن عمه ، عمر بن عبد العزيز ، أميرا على المدينة المنورة ، ومعها أيضا مكة المكرمة والطائف عام ٨٧ هـ ويذكر الطبرى في أحداث ذلك العام ان عمر بن عبد العزيز قدم المدينة في شهر ربيع الأول ، وهو لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره ، وكان أول ما فعله أن صلى الظهر ، ثم دعا عشرة من فقهاء المدينة المنورة ، وأخبرهم بأنه لا يريد ان يقطع أمرا إلا بمشورتهم ، وأوصاهم بتقوى الله ، وإبلاغه عن أى ظلم يقع من عماله (١) . وسار عمر على نهج جده لأمه عمر بن الخطاب ، في العدالة المطلقة ، والحرص الشديد على أموال المسلمين ، ومصالحهم .

وفي عام ٨٨ هـ ، أصدر الوليد بن عبد الملك ، أوامره إلى عمر بن عبد العزيز ببناء المسجد النبوى ، وتوسيعه لتدخل فيه بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم . كما أمره بتمهيد الطرق ، وحفر الآبار في المدينة المنورة ، وفيما بين المدينة ومكة المكرمة . وأشرف عمر بن عبد العزيز بنفسه على تنفيذ ذلك (٢) .

العباسيون :

وبالرغم من حركات مكة المتكررة ، ضد حكم العباسيين ، فإن خلفاء بنى العباس أظهروا اهتماما ومحبة لمكة المكرمة وأهلها . فقد حج أبو جعفر المنصور خمس مرات ، ثم حج حجته السادسة في عام ١٥٨ هـ ، ولكنه مات ولم يبلغ مكة ، فقد وافاه الأجل عند بئر ميمون ، قرب منى ، على مسافة قصيرة من مكة المكرمة . وحج المهدي مرتين ، وحج الرشيد تسع مرات . وفي حجة عام ١٧٩ هـ حضر للعمرة في رمضان بمكة المكرمة ، ثم ذهب الى المدينة فبقى بها إلى وقت الحج ، فعاد إلى مكة المكرمة وحج بالناس ، وقد رفض الركوب ، وخرج من مكة إلى منى وعرفات ماشيا على قدميه ، وشهد جميع المشاهد ماشيا .

١ - أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى تاريخ الطبرى - تاريخ الرسل والملوك - الجزء السادس - الطبعة الثانية - دار المعارف بمصر (أحداث عام ٨٧ هـ) ص ٤٢٧ - ٤٢٨ راجع : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام للإمام الحافظ أبى الطيب تقى الدين محمد بن أحمد بن على الفاسى المكى أحد قضاة مكة المكرمة (٧٧٥ - ٨٣٢ هـ) الجزء الثانى القاهرة ١٩٥٦ - ص ١٧٢

٢ - تاريخ الطبرى - الجزء السادس - ص ٤٣٥ - ٤٣٧ (أحداث عام ٨٨ هـ)

وأنفق الخلفاء العباسيون وزوجاتهم ورجال حاشيتهم أثناء تأديتهم لفريضة الحج بسخاء كبير فقد أنفق المهدي في عام ١٦٠ هـ ثلاثين مليون درهم و ٣٠٠ ألف دينار وصلته من مصر و ٢٠٠ ألف دينار وصلته من اليمن و ١٥٠ ألف ثوب ، وبلغ عطاء الرشيد في مكة في حج عام ١٨٦ هـ مليوناً ونصف مليون دينار (١) . وكان الرشيد في الأعوام التي لا يؤدي فيها فريضة الحج ، يتكفل بالنفقة الكاملة ، والكسوة والعطاء ، لثلاثمائة رجل يحجون عنه ، ويؤدون المناسك كاملة ويهبون ثواب الحج له (٢).

وتعرضت بلاد الحجاز في أيام ضعف الدولة العباسية للاهمال وكثرت بها حوادث السلب والنهب . وأرسل احمد بن طولون بعد أن استقل بأمر مصر ، واستولى على الشام ، أرسل إلى مكة في عام ٢٦٩ هـ ، قائدين من مصر ، في جيش قوامه ٤٧٠ فارساً والفين من الجند لإنهاء نفوذ العباسيين فيها . ووصل جيش ابن طولون إلى مكة في نهاية شهر ذى القعدة ، وتمكن هارون بن محمد بن اسحق الهاشمي ، أمير مكة آنذاك ، من ان يلحق بهم هزيمة شديدة ، وأن يستولى على ما كان معهم من أموال ودواب (٣) . وهكذا فشل ابن طولون في تدعيم مركزه بمصر والشام ، إن هو أصبح راعياً للحرمين ، وهو شرف كان يتوق إليه ، وسنرى أن كل سلاطين مصر من بعده سيعملون جاهدين على أن ينالوا هذا الشرف العظيم ، الذي رأوا فيه تثبيتاً لحكمهم ، ودعماً لشرعيته .

وكان شر ما أصاب بلاد الحجاز في ذلك العصر هجمات القرامطة ، وهم جماعة من الشيعة ، زاد تعصبهم وتطرفهم ، وتمكنوا قرب نهاية القرن الثالث الهجري من السيطرة على شرقي الجزيرة العربية ، واستولوا على البحرين ، وهجر ، وهي تشمل الساحل الشرقي الحالي للمملكة العربية السعودية بما في ذلك مقاطعة الحسا

-
- ١ - احمد السباعي - تاريخ مكة - الجزء الاول - الطبعة الثانية - مكة المكرمة ١٣٨٠ هـ الجزء الثاني - ص ٢١٦
 - ٢ - محمد الخضري - محاضرات تاريخ الامم الاسلامية الطبعة العاشرة القاهرة ١٩٧٠ ص ١٣٦
 - ٣ - تقي الدين الفاسي - شفاء القرام - الجزء الثاني - ص ١٨٩ .

والقطيف ، وخرجوا عن طاعة العباسيين في عهد المعتضد . وفي عام ٣١٧ هـ خرج زعيمهم أبو طاهر من مقره بالقطيف إلى مكة لانتزاعها من عامل العباسيين فوصلها يوم ٧ ذى الحجة عام ٣١٧ هـ قبل وقفة عرفات بيوم واحد ، فنهب هو وأصحابه أموال الحجاج وقتلوه ، حتى في المسجد الحرام ، وسبي النساء والأطفال ، وأقام بمكة ستة أيام ، فلم يقف أحد تلك السنة بعرفة . وانتزع القرامطة الحجر الأسود من الكعبة ، ونقلوه الى واحة القطيف ، ووضعوه في مسجد الضرار لكي يصرف الناس عن مكة . وظل حكم أبي طاهر للحرمين مدة تزيد عن عشرين سنة ، كان الحجر الأسود خلالها في هجر . وأعيد الحجر إلى مكة عام ٣٣٩ هـ ، وزالت قوة القرامطة السياسية بعد ذلك ، وانحصرت سلطتهم في جهات الحسا والبحرين مدة قرن من الزمان (١) .

الآخشيدي :

عاد حكم مكة بعد محنة القرامطة التي حلت بها إلى العباسيين في بغداد . ولكن ذلك لم يدم طويلا فإن الآخشيدي في مصر رأوا أن مد نفوذهم إلى أرض الحرمين هو شرف كبير لهم يدعم سلطتهم ، ويكسبها المهابة والاحترام . وفعلا تم للآخشيدي السيطرة على مكة المكرمة والمدينة المنورة وكان ذلك في عام ٣٣١ هـ (٢) . وتفصيل ذلك هو أن الخليفة الراضي بن المقتدر أسند ولاية الحرمين معا إلى محمد بن طغج الآخشيدي ، وإلى مصر من قبله ، وأيد ذلك أخوه المتقى من بعده ، فضم الحجاز إلى محمد الآخشيدي (٣) .

ولكي ندرك أهمية السيادة على بلاد الحجاز بالنسبة للآخشيدي ومن خلفهم في

١ - تقى الدين الفاسي - المرجع السابق الجزء الثاني - ص ٢١٨ - ٢١٩ ، محمد الخضري - المرجع السابق - ص ٣٥٣ .

فؤاد حمزة - قلب جزيرة العرب - الطبعة الثانية - الرياض ١٩٦٨ م - ص ٣٠٠

راجع : Gerald de Gaury; Rulers of Mecca, London, p. 55 — 58.

٢ - تقى الدين الفاسي - شفاء الغرام - الجزء الثاني - ص ١٩٢

٣ - ابن خلكان - شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبي بكر الشافعي - وفيات الاعيان - الجزء الثاني - جولاى ١٢٨٣ هـ ص ٥٣ ، دكتور محمد جمال سرور - النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب - الطبعة الثالثة - القاهرة ١٩٥٩ - ص ١١

حكم مصر نورد نصا لخطاب بعث به محمد الأخشيد إلى رومانوس امبراطور الروم . وكان الامبراطور قد بعث إليه برسالة ذكر فيها أنه لم يتعود الكتابة إلا للخليفة ، والتمس منه تبادل الأسرى . ورد محمد الاخشيد عليه بكتاب ، أوضح له فيه المكانة العالية التي يتمتع بها في العالم الإسلامي مدللا على ذلك بامتلاكه لمصر واليمن وفلسطين والشام ثم قال : « هذا إلى ما نتقلده من أمر مكة المحفوظة بالآيات الباهرة ، والدلالات الظاهرة . فإننا لو لم نتقلد غيرها ، لكانت بشرفها وعظم قدرها ، وما حدث من الفضل توفي على كل مملكة ، لأنها محج آدم ومحج ابراهيم وارثه ومهاجره ، ومحج سائر الأنبياء ، وقبلتنا وقبلتهم عليهم السلام ، وداره وقبره ، ومنبت ولده ، ومحج العرب على مر الحقب ، ومحل أشرافها ، وذوى اخطارها ، على عظم شأنهم وفخامة أمرهم : وهو البيت العتيق ، المحرم المحجوج إليه من كل فج عميق ، الذي يعترف بفضله وقدمه أهل الشرف ، من مضى ومن خلف ، وهو البيت المعمور ، وله الفضل المشهور » (١) .

ثم يتحدث عن المدينة المنورة مفتخرا بها على امبراطور الروم فيصفها قائلا : « إنها مهبط الوحى ، وبيضة هذا الدين المستقيم ، الذى امتد ظله على البر والبحر ، والسهل والوعر ، والشرق والغرب » (٢) .

الفاطيون :

انتهت سلطة الاخشيد على بلاد الحجاز بموت كافور الاخشيدى ، حوالى عام ٣٥٦ هـ (٣) ، وعادت السلطة على الحرمين مرة أخرى للعباسيين ، إلى أن تولى الفاطميون حكم مصر والشام ، وأصبحوا يتوقون إلى ضم بلاد الحجاز إلى حوزتهم ، ليثق رعاياهم من المسلمين ، بأحقيتهم في الخلافة ، وليضعفوا من شأن الخلافة العباسية ، امام العالم الاسلامى .

١ - القلقشندي - أبو العباس احمد - صبح الاعشى فى صناعة الانشاء - الجزء السابع ص ١٣ - ١٤ .

٢ - نفس المرجع السابق .

٣ - تقى الدين الفاسى - شقاء الغرام . الجزء الثانى ص ١٩٣

وبانتهاء سلطة الدولة الاخشيدية على الحرمين ثار جعفر بن محمد الحسنى على سلطة أبناء عمومته من نسل الحسين في المدينة ، ورحل منها إلى مكة ، واستولى عليها . وبذلك استقل بحكم مكة ، ونادى بسقوط الاخشيد وحكومتهم . وأسس حكومة الطبقة الأولى من الأشراف ويسمون بالموسويين ، وكان ذلك في عام ٣٥٨ هـ ، وهو نفس العام الذى سقطت فيه مصر في يد الفاطميين (١) .

ونجح المعز لدين الله الفاطمى في اقامة علاقات طيبة وودية مع أمير مكة ، وأمير المدينة ، وتم له ما أراد ، فدعى له على منابر مكة والمدينة ، وهو ما كان يعتبره تأييداً هاماً لشرعية حكم الفاطميين . . ولم يسكت الخلفاء العباسيون على ذلك فبدلوا جهداً كبيراً لتخليص الحجاز من نفوذ الفاطميين ودعوتهم . وظلت بلاد الحجاز طوال حكم الفاطميين مسرحاً للصراع بينهم وبين الخلفاء العباسيين إلا أنه على أية حال كان صراعاً سلمياً ، لم يقرن بمظاهر العنف ، بل وجه كل منهم اهتمامه ، إلى كسب مزيد من الأنصار والمؤيدين والدعوة إلى ذلك بين أهل الحجاز (٢) .

لقد ظلت الخطبة تقام للمعز في كل من مكة والمدينة حتى توفي عام ٣٦٥ هـ . وخلفه ابنه العزيز ، وفي عهده انقطعت الخطبة له في بلاد الحجاز لفترة ، ولكنه أرسل حملة إلى بلاد الحجاز ، أعادتها إلى حوزته ، وخطب للعزيز على منابر مكة والمدينة .

وفي أيام المستنصر بالله الفاطمى تمكن محمد بن جعفر بن أبي هاشم محمد من محاربة بنى سليمان بمكة عام ٤٥٤ هـ ، وواقع بهم الهزيمة ، وأخرجهم من الحجاز ، فساروا إلى اليمن ، وبهذا انتهى عهد بنى سليمان بمكة وبدأت أسرة الهواشم نسبة إلى زعيمها محمد بن جعفر بن أبي هاشم ، الذى استقل بإمارة مكة وأقام الخطبة

١ - نفس المرجع السابق - ص ١٩٣ - ١٩٤

٢ - دكتور محمد جمال الدين سرور - المرجع السابق - ص ٢٧ - ٢٨

للمستنصر بالله الفاطمي ، على ما كان عليه الحال أيام شكر بن أبي الفتوح الحسني آخر أمراء مكة من السليمانيين (١) .

ولم يستمر الأمر للمستنصر طويلا ، فإن الشدة العظمى التي حلت بمصر ، وجعلتها في حالة سيئة من الجوع والفقر ، منعت ارسال الأموال الى أمير مكة . ولم يتردد محمد بن جعفر طويلا ، بل إنه أسرع بحذف اسم المستنصر بالله الفاطمي من الخطبة ، وخطب للخليفة القائم بأمر الله العباسي (٢) . وهكذا عادت الخطبة للعباسيين ، بعد أن قطعت من الحجاز نحو مائة سنة وحين وصلت هذه الأنباء إلى بغداد عام ٤٦٢ هـ ، سعد بذلك السلطان ألب أرسلان السلجوقي حاكم بغداد ، خاصة وانهم في مكة كانوا يخطبون له أيضا بعد الخليفة العباسي القائم (٣) . وظلت الخطبة تقام للعباسيين في مكة والمدينة ، عدا فترات بسيطة حتى وفاة الخليفة المقتدى عام ٤٨٧ هـ (٤) والواقع أن الخطبة للفاطميين في مكة والمدينة ، لم تدم الا لفترات قصيرة ومتقطعة ، بسبب عدم استقرار الأمور في مصر في العصر الفاطمي الثاني . على أن علاقة مكة والمدينة بمصر كانت رغم الدعاء للخليفة العباسي ، علاقة ودية ، فكان الخلفاء الفاطميون يداومون ارسال الحبوب والأموال للفقراء بمكة والمدينة .

الأيوبيون :

لم تضعف علاقات مصر بالحجاز ، بعد قيام الدولة الأيوبية ، وسقوط الدولة الفاطمية بمصر عام ٥٦٧ هـ . ولقد حاول صلاح الدين الأيوبي ، أن ينال رضى الخليفة العباسي بصفة عامة ، فلم يتدخل في شؤون الحجاز إلا بقدر ، فأبقى السلطة

-
- ١ - ابن خلدون - عبدالرحمن بن خلدون المغربي - العبر وديوان المبتدأ والخبر - منشورات دار الكتاب اللبناني - بيروت ١٩٥٨ - المجلد الرابع - ص - ٢٢٢ .
 - ٢ - ابن الجوزي - شمس الدين أبو المظفر يوسف بن غزا أوغلي وشهرته ابن الجوزي - مرآة الزمان في تاريخ الاعيان - القسم الثاني المجلد الاول ورقة ١٢١ ب (صور شمسية بدار الكتب المصرية بالقاهرة رقم ٥٥١ تاريخ عن دكتور محمد جمال الدين سرور - المرجع السابق - ص ٢٠
 - ٣ - تقى الدين الفاسي - شفاء الغرام - الجزء الثاني - ص ١٩٧
 - ٤ - ابن خلدون المرجع السابق - المجلد الرابع - ص ٢٢١ .

لأسرة الهواشم في الحرمين ، ومن أجل راحة حجاج بيت الله الحرام ، أسقط في عام ٥٧٢ هـ المكس عن الحجاج ، القادمين لمكة بالبحر من عيذاب ، وهي ميناء على البحر الأحمر بصعيد مصر . وقد جرت العادة على ان يؤخذ من حجاج المغرب العربي على كل حاج سبعة دنائير ونصف مصرية ، ومن لا يستطيع الدفع يعاقب أو يحبس ، حتى يفوته الوقوف بعرفة . ومن لم يؤدها ، ووصل الى جدة خلصة كان يعاقب أضعاف العقاب الذى كان يوقع على أمثاله بعيذاب ، حتى ولو كان فقيرا لا يستطيع الدفع .

أسقط صلاح الدين الأيوبي ذلك المكس عن الحجاج ، وعوض أمير مكة عنه مبلغ ثمانية آلاف أردب من القمح ، تحمل سنويا إلى جدة ، ووقف على ذلك أوقافا بصعيد مصر ، وأرسل الأقوات للمجاورين والفقراء بالحرمين الشريفين (١) .

وحاول الصليبيون أن يضربوا هيبة صلاح الدين ضربة قاسية بوصفه عدوهم الأول ، وحامى حمى الديار الاسلامية ومقدساتها ، فوضعوا خطة لغزو المدينة المنورة ، واخراج جسد الرسول عليه الصلاة والسلام والتمثيل به .

وأول تلك المحاولات الصليبية بدأ في عام ٥٧٧ هـ ، ويذكر ابن الاثير في كتابه « الكامل في التاريخ » أن البرنس أرناط أمير الكرك الصليبي ، تجهز وجمع عسكره ، ومن أمكنه جمعه من الصليبيين ، وعزم على المسير إلى تيماء ، ومنها إلى المدينة المنورة للاستيلاء عليها . وعلم بذلك عز الدين فرخشاه ، نائب صلاح الدين الأيوبي في دمشق ، فجمع العساكر الدمشقية ، وسار إلى بلده ، ونهب وخربه ، وفشلت خطة البرنس أرناط ، ووقى الله مدينة الرسول من أعداء الاسلام (٢) . وكرر أرناط المحاولة في العام التالى مباشرة أى ٥٧٨ هـ ، فعبر بأسطوله بحر

١ - تقى الدين الفاسى - المرجع السابق - الجزء الثانى - ص ٢٣١ وقد مدحه على ذلك ابن جبير بقصيدة أولها : رفعت مغارم مكس الحجاز بانعامك الشامل الفامر (نفس المرجع السابق) راجع : ابراهيم رفعت باشا - مرآة الحرمين الجزء الاول - ص ٦٩ .

٢ - ابن الاثير - عز الدين أبى الحسن الشيبانى المعروف بابن الاثير - الكامل فى التاريخ - بيروت ١٩٦٦ - المجلد الحادى عشر - ص ٤٧٠ .

القلزم إلى عيذاب . فأفسدوا في السواحل ، ونهبوا واخذوا ما صادفوه من السفن الإسلامية ، ومن فيها من التجار . وقصدوا عيذاب ، فأغاروا عليها ، وقتلوا من وجدوه في طريقهم ، ثم غادروها إلى غيرها من المواني الإسلامية ، عازمين الدخول إلى مكة والمدينة ومنع الحجاج عن البيت الحرام . ثم دخول اليمن (١) .

وخرج اسطول صلاح الدين من مصر ، بقيادة حسام الدين لؤلؤ ، وتبع أرناط ، فلم يلحق به في عيذاب . فسار لؤلؤ بأسطوله إلى رابغ وساحل الحوراء وغيرهما ، وأدركهم بساحل الحوراء ، وقتلهم هناك في البحر : ولما هرب الفرنجة إلى البر ، واعتصموا ببعض الشعاب ، نزل لؤلؤ وجنوده من مراكبهم ولحقوا بهم ، وقتلهم أشد قتال وأعنفه ، فقتل منهم عددا كبيرا وأخذ الباقي أسرى . وأرسل بعضهم إلى منى لينحروا بها كما تنحر البدن ، عقوبة لمن رام الحاق الأذى ببيت الله المحرم ، وحرّم رسوله عليه الصلاة والسلام . وعاد حسام الدين لؤلؤ إلى مصر ومعه بقية الأسرى ، حيث قتلوا جميعا (٢) .

ويذكر بعض المؤرخين أن الصليبيين الذين قتلوا أثناء المعركة قد بلغ عددهم ١٣٠ مقاتلا ، وأن الذين أسروا كانوا ١٧٠ مقاتلا ، تمكن عدد قليل منهم من الهرب ، وأعدم الباقون في منى أو في مصر (٣) .

وقد شاهد ابن جبير الرحالة المغربي بنفسه هؤلاء الأسرى يطاف بهم في شوارع الاسكندرية وقد ركب كلا منهم جملا ووجهه إلى ذنب الحمل ، والطبول والأبواق من حولهم ، وقد تحدث ابن جبير عن خبر ما اقترفوا من الجرائم فقال أنهم انتهوا إلى عيذاب فأخذوا فيه مركبا كان يأتي بالحجاج من جدة وأخذوا أيضا في البر قافلة كبيرة تأتي من قوص الى عيذاب وقتلوا الجميع .

وقد حج ابن جبير عام ٥٧٩ هـ بعد أن نزل بالاسكندرية قادما من المغرب وشاهد الاسرى ثم رحل منها إلى القاهرة ثم اتبع طريق الحج في ذلك العصر من القاهرة

١ نفس المرجع السابق - ص ٤٩٠

٢ - نفس المرجع السابق - ص ٤٩١

- ٣

إلى قوص ، على مسافة ٦٤٠ كيلو مترا جنوبي القاهرة ، ومن قوص إلى عيذاب جنوب القصير . وعيذاب والقصير ميناءان على البحر الأحمر ، يبعدان عن بعضهما عشرة كيلو مترات ، ويبعدان عن قوص بمسافة حوالى ٢٦٠ كيلو مترا ، وقد قضى ابن جبير حوالى شهرين في تلك الرحلة إلى مكة . فقد حملته من عيذاب الى جدة مراكب شراعية بدائية . وكانت مراكب الحجاج كلها على هذا النمط ، وكثيرا ما كانت تحدث حوادث غرق لها ، فغرق معها اعدادا كبيرة من الحجاج . على أن شجرة الدر أثرت أن تسافر إلى مكة عام ٦٤٥ هـ بطريق البر ، فاعتبرت أول مرتاد لهذا الطريق ، الذى أصبح فيما بعد ومنذ عهد الظاهر بيبرس الطريق الرئيسى للحجاج (١) .

وكان الحجاج في أثناء تلك الرحلة الشاقة ، يتعرضون لكثير من المخاطر ، بل إن بعضهم كان يضل في الصحراء ، ويموت عطشا . ولكن ذلك لم يمنع المخلصين لدينهم ، من التوجه في كل عام في أفواج ضخمة إلى الأراضى المقدسة . وكانت مصر ملتقى لحجاج بلاد المغرب العربى ، لىبيا وتونس ، والجزائر ، ومراكش ، بل للحجاج وسط أفريقيا . يقدون إليها في كل عام ويخرجون منها بالبحر ، من ميناء عيذاب ، أو من ميناء القصير إلى جدة أو ينبع .

وكانت قوافل الحج تأتي إلى مصر ، محملة بمنتجات تلك البلاد من المنسوجات ، والعاج وريش النعام وغيرها . وكان بعض الحجاج يستخدم هذه التجارة كوسيلة للتكسب ، وهم في طريق الحج . وكانوا يعودون إلى بلادهم بنفس الطريقة ، مارين بمصر ، وكانوا يحملون معهم بعض المنتجات والمصنوعات والسلع ، ويوزعونها في الأقاليم التالية في طريق سفرهم (٢) .

وفي نهاية العصر الأيوبي بدأ حجاج مصر ، ومن يصاحبهم من حجاج المغرب العربى وأفريقيا ، في التحول إلى طريق الحج البرى . وقد بدأت شجرة الدر بارتداد

١ - على بن حسين السلیمان - العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك - القاهرة ١٩٧٣ - ص ٦٢

٢ - دكتور جلال يحيى - العالم العربى الحديث - المدخل دار المعارف بمصر ص ٢١ .

هذا الطريق رغم ما به من مشاق . وفي عام ٦٦٠ هـ أوفد الظاهر بيبرس قافلة الحجاج ، ومعها كسوة الكعبة الشريفة ومفتاحها ، الذى صنعه لها ، عن الطريق البرى . وكانت قوافل الحج تبدأ سيرها من السويس إلى العقبة . . والطريق بين السويس والعقبة كان شاقا ، ناعم الرمال ، قليل المياه ، ويبلغ طوله ٣٠٠ كيلو متر كانت أسرع القوافل تقطعها في أكثر من عشرة أيام .

وكانت قوافل الحج تستريح في العقبة ، وتلتقى بقوافل الحج القادمة من الشام ، عن طريق غزة ، ثم ينحدر الجميع إلى قرية إيلات ، ويسرون منها مدة نصف شهر تقريبا حتى يصلوا إلى مدينة الوجه ، ومنها تسير بعض القوافل إلى المدينة ، ويسير البعض إلى مكة (١) .

على أن الأيوبيين في الواقع ظلوا طوال مدة حكمهم ، ورغم ضعف ملكهم في نهاية الدولة الأيوبية على علاقة طيبة مع أمراء مكة ، وزاد اهتمامهم بالحج ، ومشاكل الطريق . وقد ظلت بلاد الحجاز طوال عصرهم ، مسرحا للتنافس بينهم وبين آل رسول حكام اليمن ، كل طرف يحاول أن يخطب باسمه في الحرمين الشريفين . وأمراء الحجاز يخطبون أنا للأيوبيين ، وآخر للرسوليين ، وثالثا للعباسيين ، تبعا لما يقدمه لهم كل جانب من عون مادي . والواقع أن ظروف بلاد الحجاز المالية في تلك العصور كانت تحتم عليهم الاعتماد على مصدر خارجي لمعاونتهم ، خاصة وأن مصادر الرزق في البلاد كانت محدودة ، والأخطار الصليبية في كل عصر تنوق للنيل من مقدساتها . وعدم اهتمام الأيوبيين كاملا بالحجاز ، وانشغالهم بالحروب الصليبية ، هو الذى أدى إلى تدخل الرسولييين بصورة مباشرة ، في أمور الحجاز . إلا أن هذا الوضع لم يدم طويلا ، فقد تزوجت شجرة الدر من أحد المماليك ، وبدأت دولة المماليك الأولى ثم دولة المماليك الشراكسة . ولقد اهتم المماليك بالحجاز

اهتماما كبيرا ، بل إنهم تركوا حامية كبيرة العدد تعيش معيشة دائمة في وسط السكان ، وتتدخل مباشرة ، في أمور الحكم والدفاع عن البلاد (١) .

المماليك :

كانت شجرة الدر هي همزة الوصل بين دولة الأيوبيين ودولة المماليك التي ورثتها . وحين سقطت بغداد في يد التتار عام ٦٥٦ هـ ، عمل الظاهر بيبرس على احياء الخلافة العباسية في مصر ، باعتبارها رمزا دينيا يكسب دولة المماليك وسلاطينها نوعا من الشرعية . وكان من الطبيعي أن يسارع المماليك إلى السيطرة على الحرمين ، ليزداد وضعهم ثباتا ، ويزداد مركزهم قوة ، بصفتهم حماة الإسلام والمسلمين : وكان اشرف مكة والمدينة قد استغلوا ضعف الخلافة العباسية ، منذ نهاية القرن السادس الهجري واستقلوا بالحجاز ، استقلالا يكاد يكون تاما . ومنذ ذلك الحين بدأ الصراع بين الأيوبيين والعباسيين والرسوليين باليمن ، كل يحاول أن يسيطر على بلاد الحجاز دون جدوى .

وفي عام ٦٦٧ هـ ، حج إلى مكة المكرمة الظاهر بيبرس ، سلطان المماليك وصاحب مصر والشام ، في ثلاثمائة مملوك وجماعة من أعيان الخليفة وغيرهم ، وتصدق في الحرمين بأموال كثيرة ، ورحب أبو نمي أمير مكة به ، خاصة بعد أن وفق بينه وبين عمه الشريف إدريس وكانا في خلاف دائم ، وقد استمرت اماره أبي نمي على مكة ، واستمر معها نفوذ المماليك حتى عام ٧٠١ هـ ، فعاصر بعد الظاهر بيبرس ، المنصور قلاوون ، والأشرف خليل ، والناصر محمد بن قلاوون . وشغل سلاطين المماليك بأبنائه من بعده مثلما شغلوا به مدة قرن من الزمان (٢) .

وسقطت دولة المماليك الأولى ، وقامت دولة المماليك الشراكسة ، التي كان

١ - راجع : على بن حسين السليمان - المرجع السابق - ص ٢٠٣ .

٢ - على بن حسين السليمان - المرجع السابق - ص ٢٤ .

أول سلاطينها برقوق عام ٧٨٤ هـ . واهتم برقوق ومن أتى بعده من سلاطين المماليك اهتماما زائدا ببلاد الحجاز ، ذلك انها فضلا عن ما كان لها من مكانة روحية عظيمة ، قد اوضحت الآن وفي العصر الثاني لحكم المماليك مصدرا هاما للأموال ، بالنسبة لسلاطين المماليك . لقد نشطت الحركة التجارية في البحر الأحمر تحمل تجارة الشرق من منسوجات ، وتوابل ، ومجوهرات ، إلى أوروبا عبر مصر والشام ، وكلاهما تابع للدولة المماليك . ومن هنا كان اهتمام المماليك الشراكسة بجدة وينبع ، بل واهتمامهم الشديد بطرق القوافل التي تخترق الحجاز ، وتجعل من مكة سوقاً تجاريا هاما (١) .

البرتغال المسلمون :

وشهد القرن الحادى عشر الميلادى بداية حركة صليبية نشطة ضد المسلمين في الأندلس بغية طردهم تماما من شبه جزيرة ايبيريا ، استمرت أكثر من اربعة قرون . ويعلق المؤرخ البريطاني المشهور فيشر على ذلك مؤيدا فيقول : « التوافق الزمني بين عصر الجهود المسيحية ضد المسلمين في أسبانيا ، وعصر الحروب الصليبية في الشرق لم يكن محض الصدفة أو وليدها ، وبكفى دلالة على استناد هذا التوفيق إلى غير الصدفة البحتة أن مطلع الحروب الصليبية لا يبعد كثيرا من فتح المسيحيين الاسبانيين مدينة طليطلة سنة ١٠٨٥ م ، وأن خاتمته تقرب من استيلائهم على مدينة مرسية ١٢٦٦ م . ذلك ان الحماسة التي أثارته دعوة البابا أربان الثاني إلى الحروب الصليبية ، لم يقف تيارها أو ينكص عند جبال البرانس ، بل امتد إلى اسبانيا المسيحية حتى شملها كلها بجزارته التي عمت أوروبا جميعا (٢) » .

والواقع أن اسبانيا كلها كانت في عام ١٢٦٦ م في قبضة المسيحيين وحظيرة

١ - نفس المرجع السابق ص ٤٢

٢ - هـ . ١٠٠٠ ل . فيشر . تاريخ أوروبا - المصورالوسطى . القسم الثانى - ص ٣٩١

الكنيسة الكاثوليكية ، ما عدا غرناطة التى ظلت قابضة في حوى جبالها المنيعه الشاهقة ، زهاء قرنين ونصف من الزمان ، ثم سقطت في يد المسيحيين ، لتصنع النهايه لدولة اسلامية عظيمة ، غرست بذور الحضارة في أوروبا ، وساهمت في نقلها من ظلمات العصور الوسطى ، إلى حضارة العصر الحديث ، ألا وهى الدولة الاسلامية في الأندلس وبدأت أنظار المسيحيين في أوروبا تتجه صوب مصر ، والشام ، وفارس ، وشمال أفريقيا ، كدول اسلامية قوية ، تبغى أن تضعف من سلطانها وقوتها ، وتزعمت البرتغال تلك الحركة ، وابتكرت وسيلة جديدة تلازم حركة الاستكشافات الجغرافية ، بقصد تطويق العالم الاسلامى بسياج مسيحى ، ومنع مصادر الثروة التجارية عن العالم الاسلامى . ونستعرض الآن جهود البرتغال هذا المجال وكيف تصدى لها المسلمون .

منذ عهد صلاح الدين الأيوبي واسترداده لبيت المقدس من يد الصليبيين عام ١١٨٧ ميلادية ، قام حاجز هائل القوة في مصر والشام ، يفصل بين دار الاسلام ودار الحرب ، ولم تكن أهمية ذلك لتخفى على الدول المسيحية الأوربية ، فوجهت الحرب الصليبية الخامسة عام ١٢١٨ م إلى مصر ذاتها . ثم إن عددا كبيرا من ملوك اوربا ، قد انضموا إلى لويس ملك فرنسا ، وقاموا بأخر محاولة لهم ضد مصر ، ولكنها منيت بالفشل ، وهزم الصليبيون هزيمة منكرة ، ووقع ملكهم لويس في الأسر . وانتهت بذلك قصة الحروب الصليبية ، التى تعتبر من أبرز صفحات تاريخ الصراع بين الشرق والغرب .

إلا أن النشاط الصليبي ضد المسلمين لم يتوقف ، فقد استمر طوال قرنين من الزمان ، بصورة حادة ضد مصر ، وبلاد الشام ، وشمال أفريقيا ، وآسيا الصغرى ، وأسبانيا . ودأب بعض البابوات على التدخل بأنفسهم واصدار الأوامر الصريحة

للعرايا المسيحيين ، بمقاطعة التجارة مع المسلمين ، واستغلوا موقع جزيرة قبرص وحماسة ماوكها ضد المسامين ، لتنفيذ سياسة المقاطعة (١) .
وحاول أعداء العرب والمسلمين ، إضعاف شأن مصر ، وفارس ، وبلاد الشام ، بوسيلة أخرى غير الحرب والقتال . وعلموا أن ثروة المسلمين التي غدت حركة المقاومة للغزو الصليبي ، وكانت ولا زالت حتى ذلك الحين تعطى المسلمين قوة ونفوذا ، تكمن في الأموال الطائلة ، التي تتدفق على تلك البلاد من قيامها بدور الوسيط في تجارة ، الأفاوية ، والتوابل ، والحريز ، والمجوهرات وغيرها من البضائع ، بين بلدان الشرق وبين دول أوربا . وقامت جمهورية البندقية هي الأخرى ، متعاونة مع المسلمين ، بدور الوسيط في تلك التجارة الراجحة بين الشرق والغرب ، وتوطدت صداقتها للعرب والمسلمين .

ومنذ أدرك أعداء المسلمين ذلك ، بدأوا محاولات مستمرة ، وبلا كلل ، للقضاء على سطوة ونفوذ المسلمين المتحكمين في طرق تلك التجارة بين الشرق والغرب . ولعبت البرتغال الدور الأول في ذلك المجال . والبرتغال دولة صغيرة تقع في غرب شبه جزيرة ايبيريا ، وكانت من أول وأكثر دويلات شبه الجزيرة تحمسا ضد المسلمين وعداء لهم ، وهي التي أذكت الروح الصليبية في قشتالة وأرجونة بشمال شبه الجزيرة الايبيرية . فكان الأسباني أو البرتغالي يعتبر القتال ضد المسلمين ضرورة دينية ، وواجباً وطنياً .

وبدأت البرتغال صراعها ضد المسلمين بحريا . زمن ملكها هنري الملاح (١٣٩٤ - ١٤٦٠ م) الذي كان رئيسا لهيئة اليسوعيين (الجزويت) وهو من أشد المتعصبين ضد المسلمين . وزاد من حماس هنري الملاح ، تأييد البابا له ، وأن الحرب ضد المسلمين لطردهم من الأندلس ، كانت قد حققت نجاحا كبيرا في طرد المسلمين

Thompson, The Middle Ages, Vol. 1, p. 536

من شبه الجزيرة الايبيرية كلها .

ولم يكن قد بقي للمسلمين في الأندلس آنذاك سوى غرناطة ، التي بدا أنها هي الأخرى
نن تصمد طويلا أمام عداء المسيحيين وضرباتهم . وفي وسط ذلك الجو العدائي
للمسلمين ، بدأ هنرى الملاح باحتلال مراكز معينة على الساحل المراكشي لأفريقيا ،
لتلجأ إليها السفن البرتغالية ، وأنشأ أول مدرسة للتجارة ، وألحق بها كل من نذر
نفسه للحرب ضد المسلمين بروح صليبية .

وخرجت الحملات البحرية من البرتغال لاستكشاف شواطئ أفريقيا الغربية
لمدة أربعين عاما . ورغم أن تلك الحملات لم تحقق في حياة هنرى الملاح ما كان
يبيغها لها من نجاح ، إلا أنها مهدت بعد مئتي عام ١٤٦٠ م ، إلى تحقيق الوصول بحرا
إلى الهند ، بالدوران حول أفريقيا . ولقد نجحت حملات هنرى الملاح الاستكشافية
في كشف جزر ما ديرا ، ، وكاناري ، وآزور ، وكلها بالمحيط الأطلسي (١) .

ونشطت حركة الاستكشافات البرتغالية ، بعد وفاة هنرى الملاح ، ونجح
بارثلوميو دياز في اكتشاف رأس الرجاء الصالح عام ١٤٨٦ م . وفي عام ١٤٩٨
تمكن فاسكو دي جاما من اتمام الرحلة من لشبونة بالبرتغال إلى كلكتا بالهند ، وهكذا
وصلت البرتغال إلى الهند ، عن طريق البحر ، دون ما حاجة للمرور بأراضي
الدول الاسلامية في مصر ، والشام ، وفارس .

وكم كانت دهشة البرتغاليين ، حين وجدوا أن تجارة الهند والشرق كلها في
يد العرب ، وأن وسائل النقل عربية في غالبيتها ، وأن للعرب نفوذا كبيرا لدى ملك
قاليقوط كما رأوا كثرة المدن العربية ، والجاليات الاسلامية ، على سواحل المحيط
الهندي ، وعلى الساحل الأفريقي الشرقي ، مثل زنجبار ، ومبسه ، ومقديشو ،
وموزمبيق ، وكذا على سواحل البحر الأحمر ، وعلى ساحل الهند الغربي ، وفي

سيلان ، وجزر الهند الشرقية . وشاهدوا بأنفسهم الدور الكبير ، الذى يلعبه العرب في اليمن ، وعدن ، وحضرموت ، في دعم النشاط التجارى مع الهند وبلدان الشرق . وأدرك البرتغاليون ان حركة الاستكشافات التى قاموا بها ، وصرفوا عليها الأموال الطائلة ، ستصبح عديمة القيمة إذا هم لم يواصلوا جهدهم للقضاء على تجارة العرب ونفوذهم . وبدأ البرتغاليون على الفور في ارتكاب أعمال القرصنة الهمجية ، ضد أساطيل المسلمين وضد ملك قاليقوت ، صديق العرب والمسلمين . وشجعهم على هذا انتصار المسيحية الساحق على البقية الباقية من المسلمين في شبه جزيرة ايبيريا ، فبسقوط غرناطة في يد المسيحيين عام ١٤٩٢ م زالت دولة الأندلس الاسلامية ، بعد أن ظلت منارة اسلامية في أوروبا ما يقرب من ثمانية قرون .

وتأكد ملك قاليقوت الهندى ، صديق العرب والمسلمين ، أن قوته البحرية ليست ندا للقوات البحرية البرتغالية بقيادة البوكيرك ، فأرسل إلى السلطان قنصوه الغورى ، سلطان المماليك في مصر ، يطلب معونته البحرية ، وتدخله لمقاومة الغزو البرتغالى ، الذى بدأ صراعه مع التجار العرب في المحيط الهندى والخليج العربى منذ ١٥٠٢ ، والذى نجح في عام ١٥٠٥ في الاستيلاء على جزيرة سوقطرة ، عند خليج عدن ، وهى الجزيرة التى تتحكم إلى حد كبير في باب المندب ، المنفذ الجنوبي للبحر الأحمر . ومنها تمكنوا من السيطرة على البحر الأحمر حتى جدة نفسها .

ثم تجلت الروح الصليبية مرة أخرى أثناء هجوم برتغالى حاقد على مسقط ، وكانت مشيخة تابعة لمملكة هورمز . وفيها لقي البوكيرك مقاومة عنيفة ، فحرق المدينة بمبانيها ومسجدها أما الأسرى من الرجال والنساء ، فقطع أنوفهم وآذانهم (١) واستمر في التخريب والنهب حتى وصل إلى هرمز نفسها فاحتلها عام ١٥٠٧ لأهميتها في التحكم في مدخل الخليج العربى .

١ - دكتور محمد انيس - الدولة العثمانية والشرق العربى - ص ١٢١

وكان المماليك على وعى كامل بخطورة هذا الغزو البرتغالي الصليبي ، ولذلك بدأوا منذ ١٥٠٦ م في بناء أسطول حربي في ترسانة السويس ، وتلقوا في هذا المجال معونة البندقية الايطالية التي ساءها وأضر بمصالحها قطع البرتغال لطريق التجارة بين الشرق والغرب ، عبر مصر وبلاد الشام . ولكن البندقية شغلت بفكرة الطريق البرى عبر تركيا وإيران ، وانصرفت عن معونة المماليك ضد البرتغال ، مما اضطر السلطان الغورى إلى طلب المعونة من الدولة العثمانية زمن السلطان بيازيد الثاني ، خاصة وقد وصلته أنباء اتصالات جرت بين البرتغاليين وهيلين ملكة الحبشة ، بقصد اقامة تحالف مسيحي ، وترددت اشاعات عن مشروعات خيالية لتحويل مجرى النيل من الحبشة ومنع وصوله إلى مصر . كما أن البرتغاليين كانوا قد بدأوا محاولتهم للاستيلاء على عدن ، وهددوا باحتلال جدة ، ومكة والمدينة ، ليخرجوا جنة الرسول عليه الصلاة والسلام ويمثلوا بها (١) وهي فكرة قديمة طالما ترددت زمن الحروب الصليبية بقصد اغاظة المسلمين والتنكيل بمقدساتهم . وقد حاول أمير الكرك أرناط — كما ذكرنا سالفاً — أن يفعل تلك الفعلة الشنيعة ، لكنى ينتقم من المسلمين ويلحق العار بصلاح الدين ، ولكن القوات البحرية لصلاح الدين الأيوبي قضت على محاولته ، وأفنت قواته في عام ١١٨٣ م . بل إن صلاح الدين لم يلبث أن شدد الهجوم على الصليبيين في موقعة حطين عام ١١٨٧ م ، وسقطت مملكة بيت المقدس ، ووقع البرنس أرناط في يد صلاح الدين أسيراً ، فأمر صلاح الدين بإعدامه فوراً في أرض المعركة ، بل قيل إن صلاح الدين بنفسه هو الذى قتله ، انتقاماً لمحاولته إلحاق الأذى بالأراضي الحجازية المقدسة وبقبر الرسول عليه الصلاة والسلام (٢) .

تحمس المسلمون على أثر تهديد البرتغاليين بمهاجمة جدة ومكة والمدينة، وبدأ السلطان الغورى يعد حملة قوية للتصدى للبرتغاليين . واستجابت الدولة العثمانية

Camb. History of Islam, Vol. I p. 317 - 318

De Gaury, op. cit., p. 82.

لمطالبه منها ، وأرسلت إليه ٣٠ سفينة تحمل أخشابا و٣٠٠٠ بندقية . ولكن فرسان القديس يوحنا ، الذين كانت لهم السيطرة في جزيرة رودس بالبحر الأبيض المتوسط ، والمتحالفين مع دولة البرتغال ، تمكنوا من الاستيلاء على تلك المعونة التي بعث بها العثمانيون ، وهكذا فقدت في الطريق ، ولم يصل شئ منها إلى المماليك في مصر . ولكن الدفعة الثانية وصلت سليمة إلى القاهرة مع مطلع عام ١٥١١ ، وكانت تتكون من ٤٠٠ بندقية و٤٠ قنطارا من البارود . ووصل إلى مصر في تلك الفترة عدد من البحارة والملاحين العثمانيين ، للعمل على أسطول المماليك ، المعد للتصدى للبرتغاليين (١) .

على أن كل تلك الجهود قد ذهبت سدى فإن الأسطول المملوكي بعد أن أحرز عدة انتصارات أولية ضد الأسطول البرتغالي ، لم يلبث أن عجز عن مواجهة السفن البرتغالية الثقيلة الجيدة التسليح ، ولاقى الأسطول المملوكي هزيمة شديدة عام ١٥٠٩ ، في موقعة ديو البحرية . واضطر الأمير حسين الكردي ، قائد الأسطول المصري ، إلى تحصين جدة ، استعدادا لمقاومة أى هجوم برتغالي . وبدأ أهل جدة وحاميتها العسكرية منذ عام ٩١٤ هـ / ١٥٠٩ م عملهم الشاق المضى في اقامة سور ضخيم حول المدينة . وقد استغرقت عملية البناء عامين .

وكان له خمسة أضلاع ، وبلغ ارتفاعه أربعة أمتار (١) . وحاول البوكيرك في عام ١٥١٣ م الاستيلاء على عدن ولكنه فشل . ثم قامت حملة أخرى بقيادة لوبوسوارس للاستيلاء على جدة نفسها ، رغم اقامة السور حولها ، غير ان الحملة فشلت بسبب رياح شديدة هبت عليها في جنوب البحر الأحمر . وبقيت جدة لم تتعرض للهجوم إلا زمن العثمانيين ، الذين خلفوا المماليك ، بعد استيلائهم على مصر عام ١٥١٧ م ، وكتب عليهم أن يتحملوا مسئولية الدفاع عن العرب والاسلام لبضعة قرون .

سليم الأول (١٥١٢ - ١٥٢٠)

بدأت الدولة العثمانية ، قرب نهاية القرن الخامس عشر الميلادي ، في قمة مجدها ، متربعة على الأناضول ، وكل شبه جزيرة البلقان التي تشمل اليوم أغلب أراضي كل من رومانيا ، وبلغاريا ، واليونان ، ويوغوسلافيا ، والمجر ، وألبانيا (١) . لقد تمكن سلاطين آل عثمان ، من الاستيلاء على املاك الدولة البيزنطية ، مدينة إثر أخرى ، وتحطمت الأحلاف المسيحية المتعددة التي تألفت ضدهم ، حلفا في إثر حلف ، وامتد نفوذ المسلمين ، في أوروبا ، وعلت أصوات المؤذنين في مساجدها . ووقفت الدولة العثمانية ، وقد أتمت كل تلك الفتوح ، في مفترق الطرق . هل تستمر في توسعها في أوروبا على حساب الشعوب المسيحية ، وتحافظ في نفس الوقت على العلاقات الطيبة مع الدولتين الاسلاميتين المتاخمتين لحدودها . أم تتجه في فتوحاتها نحو هاتين الدولتين الاسلاميتين ، في مصر وفارس ، تهاجمها ، قبل أن تفكر أي منهما مستقبلا في مهاجمتها ، خاصة والعلاقات الودية ، كان مشكوكا في إمكان استمرارها ، لتضارب المصالح ، واختلاف الأهداف . هل تحاول الدواة العثمانية أن تعالج مشاكلها مع الشعوب المسيحية الأوروبية ، الخاضعة لسلطانها ، وأن تدعم بالشعوب الاسلامية العريقة في فارس ، ومصر ، والشام ، وبلاد الحجاز ، واليمن ، وشمال أفريقيا ، قوة الدولة العثمانية ، التي تدين أغلب الشعوب الخاضعة لها بغير الاسلام ، وتكيد له دواما ، وللدولة (٢) .

لقد قررت الدولة العثمانية في تلك الفترة الحاسمة من تاريخها ، ومع مطلع القرن السادس عشر الميلادي ، أن توقف من توسعها في أوروبا ، مؤقتا وإلى حين ، وأن

١ - The Cambridge History of Islam, I, The Central Islamic Lands, Cambridge, 1970, pp. 314 - 315.

٢ - F. N. Fisher, The Middle East, a History, London, 1971, pp. 203-204

احمد بن على بن احمد العلى المعروف بابن زنبيل الرمال - من علماء القرن العاشر الهجري
تاريخ السلطان سليم العثماني مع السلطان قانصوه الغوري - القاهرة - طبع حجر - ١٢٧٨ هجرية - ص ١٠ ومايليها .

تتجه في توسعها ضد دولة فارس ، ثم ضد دولة المماليك ، يحدوها الأمل في أن تضم إليها أعظم الشعوب الاسلامية ، لتكسب وهى الدولة الاسلامية ، التى أتمت كل فتوحاتها في أوربا باسم الاسلام ، وتحت لواء « الله اكبر » ، مركزا مرموقا كدولة اسلامية عظمى تحمى الاسلام ومقدساته في مصر ، والحجاز ، والعراق ، والشام ، وفلسطين ، وبقية الدول العربية في شمال أفريقيا .

اصطدمت الدولة العثمانية أولا بفارس ، لأن الشاه اسماعيل الصفوى كان قد تمكن في عام ١٥١٠ من فتح العراق ، وبدأ في نشر المذهب الشيعى في الأناضول ، مع انتحريض على القيام بثورة ضد الحكم العثماني السنى ، معتمدا على الأقليات الشيعية المنتشرة هناك . ونهض السلطان سليم بحزم في وجه هذا التحدى ، وتوجه بجيوشه إلى تبريز عاصمة خصمه . وفي وادى تشالديران ، أحرز سليم الأول عام ١٥١٤ ، نصرا حاسما ضد الصفويين . والحقيقة هى أن الغزو العثماني لفارس لم يحطم استقلالها ، وإنما أضعف نفوذها ، في العراق ، وكردستان مما مهد لفتح العراق فيما بعد (١) .

ضم مصر :

في صيف ٩٢١هـ / ١٥١٥ م تقدم السلطان سليم بجيوشه ، ولم يكن تقدمه هذه المرة ضد فارس ، بل كان ضد الأمير علاء الدولة ، حليف الدولة المملوكية في مصر . وكان علاء الدولة أميرا لإمارة تركمانية على حدود الدولة الصفوية ، ووقف إلى جانب الصفويين في حربهم ضد السلطان سليم . واحتلت جيوش سليم الأول ولاية علاء الدولة ، فأدرك الغورى سلطان المماليك الشراكسة في مصر ، أن الخطوة التالية للعثمانيين ستكون ضد بلاد الشام ومصر .

والواقع أن انتصار تشالديران أصبح نقطة تحول بارزة في تاريخ الأناضول ،

فقد ضمت للدولة العثمانية أخيرا كل المنطقة الشرقية من الأناضول، واستولى سليم في ٩٢١ هـ / ١٥١٥ م على ديار بكر . وخلال العامين التاليين كانت كل مدن شرق الأناضول ، والقبائل القاطنة بها قد انضمت بالقوة ، أو بالوسائل السلمية للدولة العثمانية . وكان استيلاء العثمانيين على هضبة شرق الأناضول المرتفعة كسبا استراتيجيا هاما ، ضد الصفويين والمماليك ، وضد أى غزو يوجه للدولة من الشرق ، وسيطر العثمانيون بذلك على طرق تجارة الحرير بين تبريز وحلب ، فمنعوا موردا هاما من موارد الثروة عن أعدائهم . وبدأوا في الاستعداد لحرب المماليك ، انتقاما لتعاطفهم مع الشاه اسماعيل الصفوى ، ولأيوائهم كثيرا من الخارجين على سلاطين آل عثمان ، ولقيامهم عدة مرات ، قبيل تولى سليم الحكم ، بالاغارة على آسيا الصغرى في مناطق الحدود ، وعودتهم بالأسرى العثمانيين يستعرضونهم في شوارع القاهرة (١) .

وكان احتلال السلطان سليم لإمارة علاء الدولة ، ثم احتلاله لديار بكر ، وشرق الأناضول ، انذارا موجها للسلطان الغورى ، يحدد اتجاه الغزو القادم ، واستعد الغورى للملاقاة العثمانيين ، وخرج الغورى بجيشه إلى حلب ، وصحب معه الخليفة العباسى محمد المتوكل على الله ، وقضاة المذاهب الأربعة ، وعددا من مشايخ الطرق الصوفية ، وتركهم في حلب ثم تقدم بجيشه ، حيث التقى بجيش سليم ، في مرج دابق ، قرب حلب . وكان ذلك في يوم الأحد ٢٥ رجب ٩٢٢ هـ ، الموافق ٢٤ أغسطس ١١٥٦ . وفي هذه المعركة الحاسمة ، انتصر العثمانيون انتصارا كبيرا ، وسقط السلطان الغورى قتيلا في أرض المعركة . وساعد على هزيمته ، خيانة خاير بك حاكم حلب ، وقوة المدفعية العثمانية الفاتكة . وحين دخل سليم حلب ، استقبل الخليفة المتوكل على الله العباسى ، وأكرمه وأجلسه إلى جواره ، على أنه لم ينس فيما بعد ، أن يعين عليه عيونا ترقبه ، خشية أن يهرب ، وهو يريد أن يستغل وجوده

ومركزه الاسمي عند ضم مصر وضم الحجاز (١) .

وتقدم سليم فاحتل حماة ، وحمص ، ودمشق ، دون قتال ، وعين عليها ولاية من طرفه . وعندما صلى الجمعة في المسجد الأموي الكبير بدمشق ، أضاف الخطيب عندما دعا له في خطبة الجمعة لقب « خادم الحرمين الشريفين » ، فكانت لفظة كريمة من خطيب المسجد ، أو لفظة كريمة ممن أوحى إليه بها ، لأن سليم ظل يعتز بهذا اللقب أيما اعتزاز ، شأن كل من سبقوه من حكام مصر الأخشيدية ، والفاطمية ، والأيوبية ، والمملوكية ، وشأن كل من خلفه على عرش آل عثمان (٢) . وأمضى سليم في دمشق شهرين ونصف ، لينظم ادارة البلاد ، وتردد قبل أن يقدم على ضم مصر . وأرسل رسالة إلى طومان باي ، الذي خلف الغوري في حكم مصر ، منذ رمضان ٩٢٢ هـ / أكتوبر ١٥١٦ م ، بل وحصل على تفويض شرعي بالحكم من المستمسك ، والد الخليفة العباسي المتوكل على الله (٣) . وأوضح سليم في رسالته التي أرسلها إلى طومان باي ، أن الخليفة المتوكل على الله والقضاة قد بايعوه ، وأنه قد أصبح الآن الحاكم الشرعي للبلاد كلها . ثم عرض عليه أن يقبل أن يحكم مصر ، كوالى من قبل العثمانيين لمصر كلها حتى غزة ، بشرط أن يملك

١ - أثرتنا استخدام لفظ « ضم مصر » ولفظة « ضم الحجاز » ولم نستخدم دوما لفظ « فتح » على ما هو شائع ، لان الدولة العثمانية كدولة اسلامية ، كانت تعرف لمصر وبسلاد الشام ، والحجاز ، وغيرها من البلدان العربية ، قدرها كبلدان اسلامية . كما استخدمنا التاريخ الهجرى فى هذا الموضوع لتعرضنا بالمناسبة لنبتذة تاريخية عن بلاد الحجاز ، ومركزها العظيم على مر العصور ، فى العالم الاسلامى ولكي نقرب تلك التواريخ ، للاخوة الذين يعتمدون اساسا على التاريخ الهجرى . وفقنا الله وايها لما فيه خير الاسلام والمسلمين .

٢ - محمد كرد على - خطط الشام - جزء اول وثان - بيروت ١٩٦٩ ص ٢٠٨ - ٢٠٩ (وصف لمعركة مرج دابق) ، ص ٢١١ - ٢١٢ (وصف لدخول سليم الى حلب ودمشق) .
راجع فى ذلك ايضا : محمد فريد بك - تاريخ الدولة العلية : القاهرة ١٨٩٦ - ص ٧٥ والصفحات التالية .

S. Lane - Poole, op. cit., p. 161

٣ - كان المستمسك قد تنازل لكبر سنه عن الخلافة لابنه المتوكل على الله عام ١٥٠٩ م

طومان باى العملة باسم سليم ، وأن يدعو له في خطبة الجمعة ، وهدد سليم في حالة الرفض لذلك العرض ، بأنه سيتقدم لاحتلال مصر وتحطيم الممالك (١) .

ورفض طومان باى العرض الذى تقدم به سليم ، وأبي أن يكون واليا للعثمانيين في مصر ، وصمم على المقاومة . وعبر سليم سيناء ودخل مصر . وفي بلبس ، أصدر منشورا طمأن فيه المصريين ، ووعدهم بحسن المعاملة . وتحصن طومان باى في الريدانية على مدخل القاهرة ، ولكن مدافع العثمانيين ، اسكتت بنادق الممالك ، وشن سليم هجوما عنيفا على القاهرة ، يوم ٢٩ ذو الحجة ٩٢٢ ، الموافق ٢٣ يناير ١٥١٧ ، ودخلها ، وارسل الخليفة المتوكل على الله مع قواته في شوارع القاهرة في اليوم التالى ، ليطمئن الأهالى ، ويزيل مخاوفهم . وفي يوم الجمعة خطب في المساجد باسم السلطان سليم ، إيداناً بزوال دولة الممالك . ولم يلبث العثمانيون أن ألقوا القبض على طومان باى ، وحاكمه سليم ثم أعدمه .

مسألة الخلافة :

أمضى سليم في مصر ثمانية شهور ، ينظم أمورها ويدرس أحوالها ، وعين خاير بك حاكم حلب واليا على مصر . ويذكر كثير من المؤرخين أن الخليفة العباسى محمد المتوكل على الله ، تنازل للسلطان سليم عن لقب الخلافة ، وسلمه شعائر الخلافة التى كانت محفوظة بالقاهرة وهى بردة النبی عليه الصلاة والسلام ، وبعض شعرات من لحيته ، وسيف عمر ، وهى لا زالت موجودة حتى الآن في استامبول . وكان أول من كتب هذا المؤرخ الرومانى M. d'Ohsoon في كتاب له عن تاريخ الدولة العثمانية صدر في باريس عام ١٧٨٧ ميلادية (٢) وذكر أيضا في كتابه هذا

Camb. History of Islam, Vol. 1 p. 319

- ١

M. d'Ohsoon, Tableau général de l'empire ottoman, Paris, 1787,

- ٢

p. 15 ff.

أن الاحتفال الرسمي للتنازل عن الخلافة لسليم ، قد أقيم في كنيسة أيا صوفيا باستامبول . ومن أشهر من قال بحدوث هذا التنازل محمد بك فريد ، وستانلى لين بول (١) .

والحقيقة أن موضوع تنازل محمد المتوكل على الله ، عن الخلافة للسلطان سليم ، لا أساس له من الصحة ، لأن الثابت تاريخيا ، أن لقب خليفة كان قد استخدمه بالفعل كل سلاطين الدولة العثمانية ، منذ أيام مراد الأول . والتاريخ يحفظ لنا رسالة ، كتبها أمير قرمانيا بأسيا الصغرى ، عام ٧٦٣ هـ / ١٣٦٢ م ، يخاطب فيها مراد الأول بلقب الخليفة (٢) . وتكررت بعد ذلك المصادر والوثائق ، التي تثبت أن لقب خليفة كان يطلق بعد ذلك على سلاطين آل عثمان ، بل إنه فقد قيمته ومعناه الأصلي ، ولم يعد أحد من السلاطين ، ولا سليم الأول نفسه ، يهتم باستعماله كثيرا ، وإن استخدموه أحيانا (٣) .

والواقع أن سليم لم يهتم بالخليفة العباسى نفسه ، إلا في بادئ الأمر ، من أجل استغلاله في الوساطة بينه وبين طومان باى . وترك سليم الخليفة العباسى المتوكل على الله في القاهرة ، يمارس نوعا من النشاط لصالح العثمانيين . فكان قصره مملوء دائما بذوى الحاجات ، يطلبون وساطته لدى السلطان سليم ، حتى قيل أن المتوكل على الله تلقى من الهدايا ما أدار رأسه ، مما جعل السلطان سليم يرسله بحرا إلى استامبول ، ولم يكن قد مضى على فتح مصر أكثر من خمسة أشهر . وقد ساء مسلك الخليفة المتوكل على الله وكثرت منازعاته مع أقاربه ، من أجل الأموال ، ومن أجل شراء الجوارى واضطر سليم في نهاية الأمر بعد عودته إلى استامبول إلى حبسه في قلعة ،

١ - محمد فريد بك - المرجع السابق ص ٧٦

S. Lane - Poole, op. cit., pp. 162-63

T. W. Arnold, op., cit., p. 130

Camb. History of Islam, Vol. 1, p. 320

- ٢

- ٢

ظل سجيناً بها ، إلى ما بعد وفاة سليم نفسه ، فأفرج عنه سليمان ، الذى خلف أباه وأرسله إلى مصر ، فبقى بها حتى مات عام ٩٤٨ هـ / ١٥٤٣ م (١) .

لقد وجه سليم كل جهده للظهور بمظهر حامى حمى المسلمين ، ومن هنا جاء اهتمامه بلقب خادم الحرمين الشريفين ، وعدم اهتمامه بلقب الخلافة . ومن هنا أيضاً كان اهتمام سليم الأول الشديد ، بضم الحجاز . والحجاز ومصر ، وعلاقتهما التاريخية الوثيقة كانت تملئ عليه الرغبة الشديدة في ضم الحجاز ، والاهتمام به .

ضم الحجاز :

كانت الدولة العثمانية ، منذ بداية قيامها ، وطوال السنوات الطويلة من الغزو والفتح للمدن والدول المسيحية ، تعزى بأنها دولة اسلامية ، ترفع من شأن الاسلام والمسلمين . وكانت عقب كل فتح كبير من الفتوح ، تبعث الرسل إلى الأقطار الاسلامية ، لتبشر الشعوب الاسلامية بأنباء الانتصارات على أوروبا وأحلافها المسيحية .

وارتبط سلاطين آل عثمان بالأراضى المقدسة ارتباطاً روحياً ودينياً ، فقد أوقف السلطان محمد الأول (١٤١٣ - ١٤٢١ م) جزء كبيراً من أمواله على فقراء الحرمين . كما أن مراد الثاني (١٤٢١ - ١٤٥١) رتب لفقراء الحرم المكى مبلغاً مقداره ٣٥٠٠ دينار من ماله الخاص ، كان يرسلها إلى مكة سنوياً . وتعهد محمد الثاني فاتح القسطنطينية فقراء مكة بهداياه . كما أن بايزيد الثاني والد السلطان سليم قام باداء فريضة الحج في نفس العام الذى تولى فيه حكم آل عثمان ، أى في عام ١٤٨١ م ، وتوثقت علاقته بأمر مكة ، كما توثقت علاقته بكبار العلماء في مكة وأغدق عليهم الهدايا ، وأغدق الأموال على الفقراء (٢) .

ولقد رأينا كيف أن سليم وجد شرفاً كبيراً في أن يطلق عليه لقب خادم الحرمين

الشريفين ، ولهذا نراه بمجرد دخوله القاهرة ، يفكر في اعداد حملة حربية ليعهد اليها بضم الحجاز إلى دولته ، ليكسبها شرفا وعلوا . هذا فضلا عما أدركه سليم من أهمية الحجاز لمصر من الناحية الدفاعية ، ومن الناحية الهجومية ، على حد سواء خاصة وأساطيل البرتغال قد حققت عدة انتصارات على أساطيل المماليك ، وبدأت تهدد المسلمين عامة ، والعرب خاصة ، في بحر العرب والبحر الأحمر ، والمحيط الهندي على حد سواء .

وقبل أن ينفذ سليم ارسال حملته إلى بلاد الحجاز ، اقترح عليه بعض الحجازيين بمصر ارسال خطاب الى امير مكة ، الشريف بركات ، لدعوته للدخول في طاعة العثمانيين ، وتعهدوا هم بالكتابة إليه . وكان سليم قد اخرج هؤلاء الحجازيين من سجنهم ، الذي وضعهم فيه السلطان الغورى ، قبل فتح العثمانيين لمصر . وكانوا بعض القضاة وبعض رجال الدين والعلم ، الذين اختلفوا مع السلطان الغورى ، بسبب سوء أحوال بلاد الحجاز ، نتيجة الأعمال البحرية البرتغالية المعادية ، التى حولت طريق التجارة بين الشرق والغرب عبر موانئ البحر الأحمر .

وكان بمصر بين هؤلاء المسجونين القاضى صلاح الدين بن أبى السعود بن ظهيرة وقد تعهد هذا القاضى بالكتابة إلى أمير مكة . وفعلا نجحت تلك المساعى ، وأرسل الشريف بركات ابنه أبا نعى إلى القاهرة . وكان أبو نعى آنذاك في الثانية عشرة من عمره إلا أنه كان صبيا متفتحا . فقد سبق له وهو في الثامنة من عمره في عام ٩١٨ هـ ١٥١٣ م أن زار القاهرة ، وسر به السلطان الغورى ، وجعله شريكا لوالده في أمر مكة وجدة ، وينبع وسائر الأقطار الحجازية ، وأعطاه فرمانا لوالده بذلك (١) .

وأكرم السلطان سليم أبا نعى ، وبعث معه أمرا سلطانيا ، بقتل حسين الكردى ، حاكم جدة من قبل الغورى . وعاد أبو نعى ، وقرأ الشريف بركات فرمان المرسل له من السلطان سليم على الناس ، وخطب باسم السلطان سليم في المسجد الحرام ، وقبض على حسين الكردى وقتل غرقا . والحقيقة أن تصرف الشريف بركات

١ - راجع : دكتور محمد انيس - المرجع السابق - ص ١٢٧ - ١٢٨

كان يتفق ومصلحة بلاده ، المهتدة بخطر الغزو البرتغالى ، والمحتاجة لعون العثمانيين المادى والعسكرى . فضلا عن أن مسلك الشريف بركات قد وطد علاقته بالعثمانيين وأدى إلى تقوية مركز الشريف أمام خصومه المنافسين له على إمارة مكة .

وسر سليم كثيرا بما حدث ، واعتبر ضم الحجاز كسبا كبيرا له وللدولة العثمانية . وليس أدل على ذلك من أنه كتب إلى شاه شيروان Shirvan - Shah خطابا يخبره فيه بأنباء النصر على دولة المماليك في مصر ، وأهم المماليك بالعجز عن حماية طريق الحجاج ضد هجمات البدو ، وأن الله قد كرمه بهمة تطبيق الشرائع الإسلامية . وعلى هذا الأساس طالب سليم في خطابه بخضوع كل الحكام المسلمين له ، وأضاف أن كل الحجاز متضمنا مكة المكرمة والمدينة المنورة قد أصبح تابعا له ، وهدد بالذهاب إلى فارس لدمرها . وطلب من شاه شيروان قبول خلافته العليا ، والدعاء باسمه في الخطبة (١) .

واهتم سليم بأرض الحجاز اهتماما كبيرا فكان أول من أقر حب الصدقة لفقراء مكة . ووصلت بالفعل إلى جدة في العام التالى لضم الحجاز مراكب قادمة من السويس تحمل سبعة آلاف اردب قمح ، وزعت كلها على فقراء مكة (٢) . وأقام العثمانيون بجدة سنجقية عثمانية يتولاها أحد العثمانيين ، وأطلق عليها فيما بعد اسم سنجقية الحبش ، رغم أن بلاد الحبشة لم تكن تابعة لها بالمرة . وقسمت موارد جدة الجمركية بين الباشا العثماني في جدة ، وبين الشريف مكة .

غادر سليم القاهرة يوم ٢٣ شعبان ٩٢٣ هـ ، الموافق ١٠ سبتمبر ١٥١٧ م ، بعد أن أمضى بها ثمانية أشهر . وعاد سليم إلى استامبول وقد ضم إلى أملاك الدولة العثمانية بلاد الشام ، ومصر ، والحجاز ، وأصبح يفاخر ، على حد ما جاء في كثير من مكاتبات هذا العصر ، بأنه حامى حمى الاسلام والمسلمين .

١ - Feridun, Munsha'at al-Salatin (Istanbul A, H. 1275), 1, 440
Qu. by Camb. Hist. of Islam, p. 321

٢ - أرسل السلطان سليمان القانونى مثلها سنويا وزاد عليها ثلاثة آلاف اردب قمح وزادها مراد بن سليمان بن سليم خمسمئة آلاف اردب أخرى فأصبحت تكفى لخبز أهل مكة جميعا .
(احمد بن زينى دحلان - خلاصة الكلام ص ٥١)

وتلا ضم الحجاز للدولة العثمانية ، امتداد النفوذ العثماني سلميا إلى اليمن ، فقد أرسل السلطان سليم أمرا سلطانيا إلى اسكندر الشركسى ، بأن يظل واليا على اليمن من قبل العثمانيين ، مثلما كان واليا عليه من قبل المماليك (١) ووافق اسكندر الشركسى على العرض العثماني ، وأعلن خضوعه للسيادة العثمانية . وسمى اسكندر الشركسى بالمخضرم ، لأنه تولى حكم اليمن في عهدين ، هما عهد المماليك الشراكسة وعهد العثمانيين ، إلا إنها على أية حال كانت سيادة عثمانية اسمية وضعيفة .

العهد العثماني الاول :

ظل اشراف مكة يتعاقبون في حكمها ، شريفا بعد شريف . وكان الأمراء يصلون إلى الحكم ، عادة بالوراثة ، وأحيانا بالقوة بعد التغلب على منافسيهم من المطالبين بالإمارة وكان الأمير بمجرد توليه السلطة ، يرسل إلى السلطان العثماني ، فيتلقى موافقته في صورة فرمان يقرأ في المسجد الحرام ، في احتفال كبير . وكثرت منازعات الأشراف فيما بينهم ، وانشغلت الدولة العثمانية عنهم بحروبها العديدة في أوروبا . ورغم كل ذلك فإن السلاطين العثمانيين ، كانوا يتدخلون أحيانا لعزل من يريدون عزله من الأشراف ، ومناصرة من يريدون مناصرته منهم ، ويستعينون في ذلك بوالى الشام التركي ، الذى كان عليه أن ينتهز فرصة الفترة القصيرة التى يبقى فيها الحجاج بمكة المكرمة ، ليقوم بعزل الشريف المطلوب عزله ، وتولية غيره من نفس الأسرة . ألا أن هذا لم يكن يحدث إلا نادرا ، لأن الشريف المعزول كان في العادة يجمع قواته وانصاره ، ويكرر العودة إلى إمارة مكة بالقوة ، ولم يكن يبقى أمام السلطان العثماني إلا أن يرسل إليه مرة أخرى فرمانا بتوليته الإمارة . والحقيقة أن الخلافات والمنازعات بين الأشراف كانت سمة العصر ، ذلك أن الأشراف قد توارثوا الحكم من أجدادهم ، في وضع غير واضح المعالم ، ولا

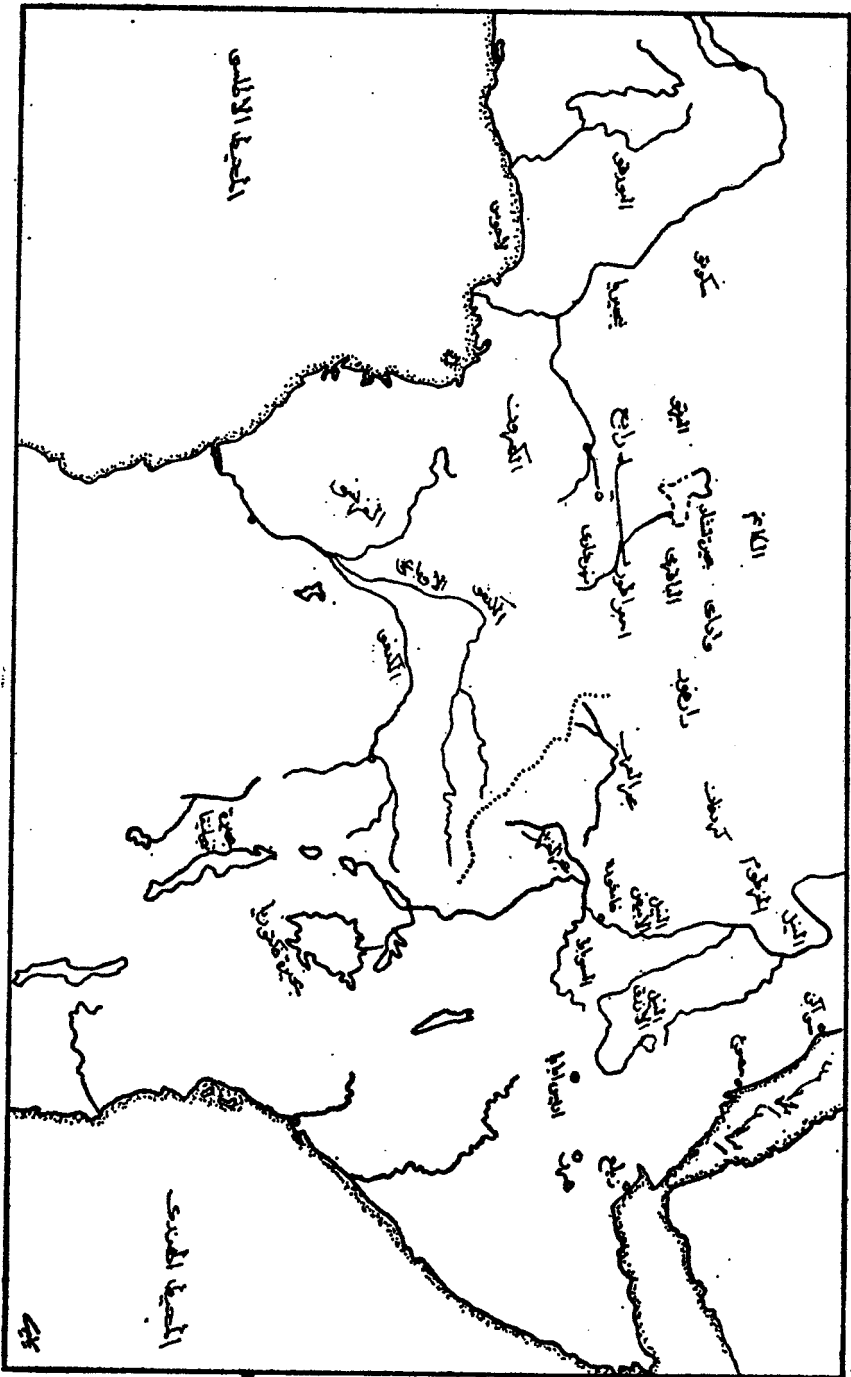
١ - محمد كرد على - خطط الشام - بيروت ١٩٦٩ الطبعة الثانية - جزء أول وثان - ص ٢١٢ والصفحات التالية .

محدد القواعد ، لا تنظمه قاعدة مسنونة ، ولا يقيده عهد شامل مكتوب . ولهذا كثرت المنازعات بين الأشراف و كل يعتد انه أحق بالامارة من غيره (١) .

وكان السنجق العسكرى التركى يقيم بجدة ، وتتبعه فرقة عسكرية تركية كاملة ، وكان سنجق جدة بحكم منصبه شيخا على الحرمين الشريفين ، يشرف على شئون تعميرهما ، ويتلقى أوامره من العاصمة التركية مباشرة ، أو من والى مصر في بعض الأحيان . وكان السنجق يتولى بنفسه تقديم الخلعة الخاصة لأمير مكة من الأشراف ، ويحضر حفل تنصيبه ، كما كان في بعض الأحيان ، يساهم في عزل أى أمير يراد عزله .

ولمدة قرنين من الزمان لم ترابط بمكة المكرمة أية فرق عسكرية عثمانية ، إلا أن هذا الوضع لم يدم بعد ذلك ، فإن فرقا من الانكشارية أخذت ترابط في مكة ، حوالى القرن الثاني عشر الهجرى ، وبدأت تتدخل في أحداث البلاد . على أنه من الملاحظ أن الأتراك تركوا الأمر في مكة في يد الأشراف ، بل أن بعض الأشراف كانوا يتجاهلون وجود سنجق عثماني في جدة ، بل كانوا يتجاهلون في بعض الأحيان أوامر الخلافة العثمانية نفسها . وكم حدث أن اضطر الباشا العثماني بجدة إلى الفرار ، فلا يستطيع العودة لجدة إلا مع وفد الحج السنوى .

واستولى أمراء مكة على واردات البلاد من الحجاج والمكوس ، منذ أوائل الحكم العثماني ، وحتى عام ١٠٤٠ هـ / ١٦٣٥ م فقى ذلك العام استطاع قانصوه ، والى التركى في جدة ، أن يستغل ضعف مركز مسعود بن ادريس أمير مكة ، وأن يضع يده على جميع الواردات ليضمها إلى خزانة الدولة العثمانية في جدة ، ومنذ ذلك الحين أخذ الحكم العثماني يوطد مركزه في مكة ، ويزيد من عدد الموظفين الأتراك بها الذين يتولون مناصب البريد ، والشئون المالية ، ونظارة السوق ، وأعمال الأوقاف . وما وافى العهد العثماني الأول على نهايته حوالى عام ١٢١٧ هـ / ١٨١٢ م ،



حتى كانت مكة قد ألحقت نهائيا بالدولة العثمانية ، وأصبحت ولاية تابعة لها في جميع مرافقها السياسية والاجتماعية (١) .

وكان لأمير مكة جنده الخاص من البدو واليمنيين ، يضاف إليهم أحيانا بعض المجاورين من المغاربة ، والحضارمة ، والأفغانيين . وكان عدد الجند يصل إلى بضعة آلاف ، عدا العبيد الذين وصل تعدادهم عادة إلى ما يزيد عن الألف ، يرتبطون بسيدهم ارتباطا وثيقا لأن ما يحصلون عليه من امتيازات ، كان رهنا ببقاء سيدهم في الحكم . ولم يكن عدد الحامية العثمانية في المعتاد أكبر من هذا الذي يملكه أمير مكة من قوة ، ولذلك كثرت المنازعات المساحة بينهما كلما دعا الأمر ، ولذلك كثرت الفتن وبقيت مكة المكرمة معرضة دائما للاضطرابات والقلق .

على أن تلك القوة العسكرية لأمير مكة كثيرا ما أفادت في صد الهجمات المعادية ، أو في اقرار الأمن والحق الهزيمة بمن يريدون السلب والنهب ، خاصة في موسم الحج كل عام . ومثال ذلك ما حدث في عام ٩٤٨ هـ / ١٥٤٣ م ، حين هاجمت أساطيل البرتغال جدة . لقد نزلت القوات البرتغالية المعادية للعرب والمسلمين في مرسى كان معروفا بأبي الدوائر ، بالقرب من جدة ، وكانوا في ٨٥ مركبا ، مشحونة بالرجال والسلاح . وخرج إليهم أمير مكة أبو نمنى في جيش ضخم بعد أن أعلن الجهاد ضد العدو الصليبي . ونحرت الإبل للجيش الاسلامي ، حتى انتهت حصيلتهم منها ، فمحمروا الخيل ، وقدم أبو نمنى كل ما يملك هو وأسرته من أجل القتال ، الذي انتهى بهزيمة البرتغاليين وفرارهم . وكان أبو نمنى في الصفوف الأولى للمجاهدين يتقدمهم ، لابسا درعه (٢) .

ضم اليمن :

كانت الخطوة التالية لضم الحجاز إلى السيادة العثمانية ، هي محاولة اخضاع اليمن للنفوذ العثماني ، لأهميته بالنسبة للبلاد المقدسة ، وكخط دفاع أول ضد

١ - احمد السباعي ٠٠ المرجع السابق - الجزء الثاني - ص ٩٦

٢ - تقي الدين الفاسي - المرجع السابق ص ٥٣

هجمات البرتغاليين الذين فشل المماليك الشراكسة من قبل في مقاومتهم . ولقد حاول العثمانيون مباشرة ، على إثر فتحهم لمصر ، ارسال حملات بحرية لطرد البرتغاليين من البحر الأحمر . وبنى العثمانيون في السويس أسطولا جديدا ، وعهدوا بقيادته إلى الرئيس سلمان ، وهو قبطان تركي عمل في خدمة المماليك الشراكسة ، وقاد أساطيلهم في حربهم البحرية ضد البرتغاليين ، واكتسب في ذلك المجال خبرة جيدة .

ونجح العثمانيون في الاستيلاء على سواكن عام ٩٢٦ هـ / ١٥٢٠ م ، وجعلوا هدفهم طرد البرتغاليين من البحر الأحمر ، وفتح طريق التجارة إلى السويس . وترك العثمانيون حامية لهم باليمن ، وأبحروا في المحيط الهندي ، كما حاولوا الاستيلاء على عدن ، لتصبح مركزا أماميا ، لصد هجمات البرتغاليين ، ومهاجمتهم إن أمكن ذلك ، خاصة وأن أعمالهم العدوانية ضد حاكم قاليقوت ، وسلطان الكوجيرات ، كانت قد بلغت حدا كبيرا ، جعلهما يستنجدان في عام ٩٣٣ هـ / ١٥٢٧ بالعثمانيين لانقاذهما من اعتداءات البرتغاليين على السلطنات الاسلامية على الساحل الغربي للهند (١) .

واستاء السلطان سليمان القانوني من البرتغاليين ، لقتلهم سلطان الكوجيرات ، الذي استنجد بحمية سليمان الاسلامية ، كما استاء من اتصالات البرتغاليين بأعدائه الصفويين لامدادهم بالمهمات الحربية ، ومساعدتهم على صنع الاسلحة الحديثة ، وتدريبهم على استخدامها . وأعد سليمان حملة عسكرية كبرى بقيادة والي مصر سليمان باشا الخادم ، وكانت مؤلفة من ثمانين مركبا ، بنيت كلها بمصر بمعاونة البنادقة ، وخرجت من السويس عام ٩٤٥ هـ / ١٥٣٨ م ، قاصدة سواحل شبه الجزيرة العربية لمحاربة البرتغاليين ، أعداء الاسلام ، واسقاط نفوذهم في الهند وأفريقيا الشرقية .

وصلت الحملة إلى عدن وكان يحكمها عامر بن داود ، من بني طاهر ، الذين حكموا في اليمن بعد تفكك دولة آل رسول ، التي كانت تحكم اليمن زمن الأيوبيين . ونجحت حملة سليمان باشا الخادم في الإستيلاء على عدن ، فقد بادر عامر بن داود بتسليم مدينة عدن للحملة ، وأعلن ولاءه للسلطان . ولكن قائد الحملة العثمانية استدعى عامر الطاهري إلى إحدى السفن العثمانية ، وغدر به وقتله . ورحلت الحملة عن عدن بعد أن عينت بها حاكما تركيا ومعه حملة عثمانية .

وخرج سليمان الخادم بحملته إلى الهند ، لمحاربة البرتغاليين ولكن انباء غدره بعامر الطاهري كانت قد وصلت إلى الشعوب الإسلامية في تلك المنطقة ، فتقاعس المسلمون في الهند عن نصرته . وعاد سليمان الخادم من حملته بعد أن قضى على عدد من السفن البرتغالية ، ولكن الحملة لم تحقق أهدافها في القضاء على النفوذ البرتغالي (١) . عاد سليمان الخادم إلى اليمن ، حيث حاول فتح بقية السواحل اليمنية ، فدخل ميناء مخا ، ثم استولى على مدينة زبيد في الداخل . وفشل سليمان باشا في الاستيلاء على مدينة تعز مقر الإمامة الزيدية ، ولكنه أخضع ميناء جيزان ، وحصنه أثناء عودة الحملة إلى جدة ، في طريقها إلى السويس .

على أن سيطرة العثمانيين على تلك المناطق من اليمن لم تدم طويلا ، مما اضطر العثمانيون في زمن السلطان سليم الثاني إلى إرسال حملة كبرى بقيادة سنان باشا عام ٩٧٤ هـ / ١٥٦٩ م لإعادة فتح اليمن . ونجحت الحملة في تحقيق قدر كبير من أهدافها فامتد النفوذ العثماني إلى مدن عدن وصنعاء وتعز وزبيد . وهدأت مقاومة الزيديين مؤقتا، حتى ثورة قاسم الكبير الذي استعاد صنعاء واضطر العثمانيون إلى الانسحاب من اليمن في عام ١٠٥٠ هـ / ١٦٤٥ م .